مجلة الرائد

العدد : ٢٤٤ الموافق في ربيع الآخر ١٤٢٤ هجري ٢٠٠٣/٦ ميلادي

عنوان المقال : انطباعات زائر لفلسطين –٥–	الكاتب : د. مأمون مبيض

وصلت بنا سيارة الصليب الأحمر التي كانت تقل فريق التدريب النفسي إلى المعبر الرئيسي الذي يصل الضفة الغربية بقطاع غزة. وكان هناك بعض الشعور بالترقب مع الاقتراب من لقطاع، حيث لم نكن نعرف ما ينتظرنا في هذه البقعة من الأرض التي هي موجودة في الأخبار يوميا. وكان معنا في هذه الرحلة الأخ الجراح د. محمد الطويل والذي كانت هذه الرحلة تعني له شيئاً أكثر من كل أعضاء الفريق فغزة هي الأرض التي ولد وترعرع فيها، واضطر ككثير من الفلسطينيين للاغتراب عنها سنوات طويلة.

وبسبب طبيعة مهمتنا الطبية، وقيام موظفي الصليب الأحمر بمعاملات الدخول فإننا لم نضطر للانتظار الطويل، أو المعانات التي يعاني منها سكان القطاع والضفة كلما أرادوا العبور، حيث ينتظر الناس رجالا ونساء وأطفالا ساعات طويلة وقد لا يسمح لهم بالعبور. كانت زجاجات الماء البلاستيكية الفارغة والتي انتشرت في كل أرض معبر الفلسطينيين تعكس حجم معاناة الناس من الانتظار ساعات طويلة تحت حرّ الشمس .

نظرت طويلا إلى الجندي الإسرائيلي الذي أوقفنا، فقد كان يمنيّ المولد وكنديّ المنشأ، وتساءلت ما الذي يعطي هذا الجندي الحق في العيش في هذه الأرض بينما يحرم من هو في مثل حال د. محمد وقد ولد هناك وأسرته هناك؟

كان لابد من حمل الأمتعة وتغيير السيارة، فالتي تأتي من الضفة لا يسمح لها بالعبور لغزة أو العكس.

سألت السائقة التي أخذتنا من المعبر، وكانت سيدة إنكليزية متطوعة مع الصليب الأحمر "ما هي انطباعاتك عن المجتمع في غزة وأنت تعيشين هنا لسنة حتى الآن ؟" فقالت: "إنك قد تحتاج إلى العيش عشر سنوات لتبدأ بفهم هذا المجتمع .

كان وصولنا لمبنى الهلال الأحمر الفلسطيني حيث سنقيم مع وقت خروج الأطفال من مدارسهم، فسلمت على بعضهم وتعرفت عليهم، أطفال في غاية الحيوية حتى بعد يوم طويل في المدرسة. سألتهم عن أسمائهم وأعمارهم فلفت نظري أحدهم ،كان عمره ١٤ سنة إلا أن طوله كان يوحي بأن عمره ٨ أو ٩ سنوات، ولكن لم تكن الظروف مناسبة لسؤاله عن تفاصيل حياته لمعرفة إن كان قصر قامته يعود

لأسباب عضوية أو نفسية بسبب المعاناة النفسية بسبب الاحتلال .

بدأنا في صباح اليوم التالي بتدريب مجموعة طيبة من العاملين في المجال الصحي والذين أتوا من عدة مناطق في قطاع غزة، كمدينة غزة وخان يونس وغيرهما. واضطر معظمهم للإقامة في مدينة غزة طوال المدة التدريبية لأنهم إن استطاعوا الوصول لبيوتهم في المساء فقد لا يتمكنون من العودة في اليوم التالي بسبب الحواجز الإسرائيلية أو بسبب اقتحام القوات الأسرائيلية .

كان المتدربون مجموعة عاملة في تضميد الجروح النفسية للضحايا الكثر بسبب أعمال العنف التي تقوم بها قوات الاحتلال الإسرائيلي. وقد كانت جوانب التدريب مشابهة للدورة التي قمنا بها في رام الله، بما فيها من مظاهر الصدمات النفسية عند الأطفال وطرق مساعدتهم أو علاجهم. كان أفراد المجموعة في غاية الحماس للتعلم واكتساب المهارات التي تساعدهم في عملهم النبيل، حيث كانوا يمارسون هذه الأعمال في الواقع العملي .

في ليلتين من أصل أربع ليال أقمنا فيها في غزة ١٩-٢٣ نوفمبر ٢٠٠٢ اضطررنا للنزول من غرف النوم في ساعة متأخرة من الليل الرمضاني إلى المستشفى المجاور الآمن بسبب اقتحام القوات الإسرائيلية لبعض مناطق مدينة غزة وسماع صوت إطلاق الرصاص. ولم تنتهي حالة الطوارئ هذه إلا مع سحور رمضان. ومما خفف علينا عبء هذه الظروف الصعبة دفء الخدمة والضيافة التي قدمها لنا الزملاء في الهلال الأحمر. وقد علمنا في صباح اليوم التالي باجتياح الجيش الإسرائيلي لثلاث قرى في القطاع .

وفي أحد الأيام قام فريق العمل بزيارة لمخيم الشاطئ ، وهو من مخيمات مدينة غزة والذي يعيش ظروفا صعوبة من الفقر والازدحام وضعف المرافق العامة وارتفاع نسبة البطالة وضعف المؤسسات التعليمية. وزرنا في المخيم بيت إحدى الأسر حيث كان هناك سيدة البيت وأولادها الستة، ولم يكن زوجها في البيت حيث أصيب بالشلل بعد حادث سير واضطر للسفر إلى الأردن للعلاج ، لانعدام المعالجات العصبية المتخصصة في غزة. وقد تحملت الأسرة العبء المالي وغيره حتى وصل الزوج للأردن، وقد كانت الأسرة تعيش على مساعدات هيئة اللاجئين الدولية. وقبل أن نغادر هذا البيت سألت السيدة إن كان هناك ما تحتاجه ؟ فأكبرت فيها جوابها الذي أكد عندي مجددا عزة المرأة الفلسطينية، فهي

لم تطلب مالا، وإنما أن تجد عملا تعمله لتكسب منه، وطلبت مني أن أتحدث مع موظفي الهلال الأحمر لتحصل على عمل عندهم .

و"مدينة الملاهي" وهي المكان الوحيد الذي رأيته على شاطئ البحر والمخصص كمدينة للعب الأطفال بما فيها من أراجيح وغيرها، كانت مغلقة الأبواب، أكل الصدأ هذه الألعاب. إن مشهد مدينة الألعاب هذه ليشير بكل وضوح إلى واقع طفولة صغار فلسطين الذين حرموا حتى من اللعب ، بعد أن فقدوا الحاجات الأساسية من غذاء ودواء وتعليم ورعاية. وقد رأينا مزيدا من هذا الواقع بصعوباته عندما صلينا صلاة الجمعة في "المجمع الإسلامي" حيث التقينا بالشيخ أحمد ياسين الذي كان يصلي هناك.

في مساء اليوم قبل الأخير للزيارة دعينا إلى طعام الإفطار في مطعم "أبو حصيرة" على شاطئ البحر، وعلمنا عندها أن السلطات الإسرائيلية لا تسمح لصيادي السمك بالنزول إلى البحر لأكثر من عشر كيلومترات وإلا فسيطلق عليهم الرصاص. وأخبرنا أحد الصيادين أن السمك الأجود موجود على بعد أعمق من هذه المسافة المسموح بها. وعلمنا في اليوم التالي أن الصيد قد منع تماما بسبب اشتباه الإسرائيليين بأحد القوارب. وهذا الحصار البري والبحري والجوي لا يزيد القطاع إلا حاجة ومعاناة .

في صباح اليوم الأخير للدورة التدريبية أقمنا حفل تخريج للمتدربين، حيث قدمنا لهم شهادات التخرج على المهارات التي اكتسبوها. وقد كانت لحظات مليئة بالمشاعر الأخوية الصادقة بعد أن عشنا معهم ومع فريق الهلال الأحمر هذه الأيام الطيبة.

كانت مشاعرنا ونحن نعبر البوابة من غزة إلى الضفة الغربية وكأننا نخرج من السجن الصغير المزدحم إلى السجن الأكبر في الضفة. وإذا استطعنا الخروج فإن فكرنا ومشاعرنا عند أولئك الذين يقبعون في السجن الصغير، والذين لم نر فيهم رغم الحصار والعذاب إلا التصميم والعزيمة على متابعة العيش الكريم والعزيز في أرضهم وأرض آبائهم، ولكنهم بحاجة للعون والمساعدة المتخصصة لتجاوز هذه الفترة العصيبة التي يمرون بها .

توجهنا في سيارة الصليب الأحمر إلى القدس، وكان كل أعضاء فريق التدريب النفسي في صمت ننظر إلى بعضنا وتتراوح أمام ناظرنا وجوه الذين التقينا بهم في غزة. كانت ابتسامة خفيفة ارتسمت على وجوهنا، ابتسامة مريحة بأننا قد أنجزنا كامل مهمة التدريب التي أتينا من أجلها بالرغم من العقبات

عنوان المقال : انطباعات زائر لفلسطين –٥–	الكاتب : د. مأمون مبيض

والصعوبات التي وضعت في طريقنا، ومن أهمها أن السلطات الإسرائيلية كانت قد أوقفت يوم وصولنا لمطار تل أبيب د. خالد دياب مسؤول الإغاثة الدولية في الهلال الأحمر القطري، وقد كان هو الذي نسق تفاصيل هذه الدورة. ربما ظنت السلطات بأنها بهذا ستوقف هذه الدورة، إلا أن تصميم الفريق كان أكبر عندما أوقف د. خالد، حيث صممنا على المضي بالمهمة وفاء لجهوجه الحثيثة في الإعداد والترتيب. وكم كنت مسروراً حين علمت أنني وأنا أغادر مطار تل أبيب إلى لندن كان د. خالد يغادر أيضاً إلى الدوحة التي أتى منها.